إعداد/ خالد دردير

غسان مطر.. الشرير الضاحك

مطر في «الشيطان امرأة» مع محمود ياسين

الشرير الضاحك غسان مطر

تميز بصوته الأجش، وجعل لنفسه أسلوبا خاصا، ورغم الكم الكبير من الأعمال الكوميدية التي قدمها إلا أن المخرجين والمنتجين هم من وضعوه في أدوار الشر، هو الفنان الراحل غسان مطر الفلسطيني الأصل الذي ولد في الثامن من ديسمبر لعام 1938 .

استطاع عرفات داوود حسن المطري الشهير بغسان مطر، أن يخدعنا ويُمثل علينا دور الشرير، على الرغم من أنه بدأ رجلا مناضلا في إحدى الحركات الخاصة بالمقاومة الفلسطينية، عندما كان زميلا للزعيم الراحل ياسر عرفات، وقام بدور مخابراتي أثناء نقله المعلومات لأعضاء قوات المقاومة في مصر وفلسطين ولبنان والأردن والتنسيق بين جميع فصائلها لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

خلف هذا الوجه المناقض ظل المخيم، الذي تحول الى المناضل الذي لم تبعده شاشة السينما عن دروب النضال ولا عملياته الفدائية، ولا أحيانا حتى حمل السلاح، وخلف ما يبدو عليه من مظاهر الفخامة وخلف هذا الصوت المميز الاجش، لم ينس غسان مطر الذي ولد في يافا ضمن 14 اخ واخت قضيته، ولكنه غادر ليناضل من أجلها.

في سنة 1958 ذهب غسان مطر ليقدم اوراقه من أجل أن يصبح ضابطا في جيش التحرير الفلسطيني، الذي كان يُشكل وقتها في بغداد ولكنه قبل بالرفض رغم استيفاءه جميع الأوراق، وكان هناك سجلا خاصا به مكتوب عليه «متهم بالتحريض.. ناصري» .

اعتبر غسان مطر أن الرئيس الراحل ياسر عرفات هو الأب الروحي له، وكان يتعامل معه على أنه الفنان المناضل للعطاء، ولم تمنعه الشهرة من تنفيذ عمليات سرية، جعلته ضمن قائمة المطلوبين لدى الإسرائيليين، وقد دفع ثمن ذلك عندما فقد زوجته وتجله جيفارا ووالدته في ليلة حرب المخيمات، وكانوا من الأوائل الذين تم اعلان اسمائهم بعد مقتلهم وكان وقتها غسان مقيما بالقاهرة.

لم ييأس غسان مطر بعد هذه المحنة، ولكنه استمر في تقديم اعماله الفنية، وكانت له «لازمات» خاصة به منها «اعمل الصح»، «باي باي يا كوتش»، وكانت له جملته الشهيرة التي كن يقولها دائما في أي لقاء صحفي أو تليفزيوني.. «إذا كانت السياسة فن قائم على الرؤية الانسانية للواقع الذي نعيش فيه، فإن الفن سياسة ايضا لتحريك الوجدان ومشاعر ملايين البشر».

من مشهد من «أيام الرعب»

من مشهد من «أبناء الشيطان»

من «الغضب» مع سهير رمزي

لم يتخيل غسان مطر وقت دخوله عالم الفن، انه سوف يقوم بادوار الشر، وكانت انطلاقته الحقيقية في هذه الأدوار عندما كان يستعد لفيلم سينمائي مع المخرج حسام الدين مصطفى بعنوان «المتعة والعذاب».

وضع غسان مطر نفسه بين الكبار الذين قدموا ادوار الشر مثل ستيفان روستي، وزكي رستم، وتوفيق الدقن، وفريد شوقي، ورشدي اباظة، وعادل ادهم، ومحمود المليجي وآخرون، ورغم كل هذه النجومية التي بدأها صغيرا، الا انه لا يزال يحمل عضوية حركة المقاومة المركزية الفلسطينية التي تضم كافة التنظيمات الفلسطينية.

دخوله عالم الفن والنجومية لم ينسيه قضيته وعروبته ونضاله، فقدم عدد من الأفلام في بداية مشواره الفني، وكانت تشجع على النضال وحث الشعوب على رفض الاستعمار ورفض الظلم، فقدم عدد من الأفلام التي تعبر عن ذلك منها عام 1969 كلنا فدائيون، والفلسطيني الثائر، وهي أول افلامه ولم يترك نضاله وقضيته.

تتلمذ غسان مطر على يد سيد بدير ويوسف وهبي واسماعيل يس، وبدأ التمثيل في عام 1963، لتتوالى بعدها الأعمال الفنية التي فاقت 50 عمل فني، ما بين مسرح وسينما وتليفزيون، ورحل عن عمر يناهز الـ 77 تاركا هذا الكم الهائل والراقي من الاعمال الفنية.

وبين فلسطين الحبيبة ووطن الإقامة في مخيم البداوي شمال لبنان بات حالم النجومية يداعب الفتى الصغير الثائر على الاحتلال المؤمن بالمقاومة والكفاح المسلح كخيار وحيد لتحرير الأرض المحتلة، ولأن الحلم المفقود لا يتحقق إلا بالسير نحوه بدأت الخطوات الأولى لعرفات في اتجاه القاهرة عام 1968 وهو التوقيت المتزامن مع حرب الاستنزاف عقب نكسة 67 ومعركة رد الاعتبار التي واكبها تيار فني تعبوي اسفر عن إنجاز عدة اعمال فنية تنوعت ما بين المرح والسينما والدراما التلفزيونية كان لعرفات داوود المطري نصيب منها حيث شارك في فيلم «كلنا فدائيون» ليكون باكورة اعماله على درب النضال الفلسطيني المصري المشترك عام 69 ويلقب باسمه الجديد «غسان مطر» فيصير واحدا من الممثلين المحترفين ينظر إليه بتقدير كبير كونه شابا وطنيا متحمسا وصاحب قضية عادلة هي قضية كل العرب، وهم كل المبدعين المخلصين وسرعان ما يرشح لدور ثان في فيلم « الفلسطيني الثائر» في العام نفسه فتصعد اسهمه باثر الصدى الذي احدثه اداؤه المتميز.

سنوات قليلة تمر تتبلور خلالها شخصية غسان الفنية فيبدأ في الاختيار والانتقاء والمفاضلة بين ما يناسبه وما لا يناسبه، ولكنه يظل رهين «الشر» خاضعا لتوازنات وحسابات تخص المنتجين والمخرجين، وليس له مطلق الحرية في تغيير جلده بعيدا عن الشكل المرسوم له على الشاشة كل ما يتاح له هو المفاضلة ما بين دور شرير ودور شرير آخر، وعلى الرغم من الاستفادة السريعة والشعبية التي تحققت للفنان الكبير في وقت مبكر إلا أن تكرار الأدوار بالكيفية نفسها صار عبئا عليه ولم يشفع له ذلك الحضور الطاغي بين أساطين التمثيل ومحترفي التعبير بالوجه أمثال محمود المليجي وتوفيق الدقن وعادل ادهم وغيرهم، فجعله يجتهد ويتفانى في المساحة ذاتها وداخل المربع الضيق الأصغر بكثير من موهبته، ومضى في الدرب يقدم ادوارا ويصنع تاريخا بالمجهود الذاتي معتمدا على خصوصية الأداء وليس نوعية الأدوار فكان دوره في فيلم «الشيماء» بطولة تضارع بطولة أحمد مظهر، غير أن المساحة المتاحة له كانت بالقطع اقل فاغفل حقه وتبددت فرصته في إثبات أنه الند الحقيقي للبطل وللأسف تكرر الخطأ بحذافيره في فيلم «الأبطال»، إذ احتل الصدارة فريد شوقي وأحمد رمزي، فيما بقي مطر داعما للاثنين وهو المتمكن القدير المساوي في القيمة والقامة والموهبة.

وتوالت الأدوار والشخصيات ولم يزداد الفنان الفلسطيني الراحل تالقا وتميزا ينتقل عبر المراحل الزمنية ونوعية الأعمال تنقلا سلسلا فيعطي للشخصية الشريرة مذاقها المختلف ويعبر عنها بخصائص لا يملكها غيره فتراه في أعمال مهمة مثل «الغضب»، «أبناء الشيطان»، «شاهد إثبات اللصوص»، «حالة تلبس» بارعا كعادته معايشا للدور وطبيعته وخلفيته، ثم سرعان ما تراه في أدوار تلفزيونية أخرى، مثل الفرسان والأبطال والإمام أبو حنيفة وعصفور تحت المطر والكومي والسلطان عبد العزيز وعالم بدون أسوار بذات اللياقة البدنية والفنية قابضا على موهبته ممسكا بتلابيب الشر الذي كتبه عليه المخرجون فأفرز منه أشكالا وألوانا دون أن نلحظ ذلك الاستهلاك الذي يفقد الممثل تأثيره وإقناعه.

ومن التلفزيون إلى المسرح كان التحليق والسطوع للموهبة الكبرى في أفق آخر تبدو الكوميديا ملمحا أساسيا فيه تماشيا مع طبيعة المسرح المعروفة، ولكننا لا نفقد إحساسنا بأداء غسان الخاص فقد أكسب هو النص المسرحي بعضا من تميزه في مسرحيات كثيرة منها «الآنسة مامي» و«مراتي زعيمة عصابة» و«نوم وجيمي» فلم نشعر بذلك التشابه البادي في العناوين بينه وبين أفلام «اللايت كوميدي».

اجتهد غسان قدر استطاعته ونفوق حين واتته الفرصة فهو صانع نجوميته وحده وصاحب الامتياز الأول في تقديم نفسه كشرير يحسب له ألف حساب.

شارك غسان مطر في بطولة أكثر من 100 فيلم و مسلسل طوال حياته و عشق الفن ، و لم يهتم بمساحة الدور الذي يُقدمه بقدر إهتمامه بتقديم أدوار تنال إعجاب جمهوره و في السنوات الأخيرة من حياته، ساند الفنانين الشباب و شاركهم في أعمالهم الفنية ، و أبرزها فيلم « لا تراجع و لا إستسلام » مع أحمد مكي و « الآنسة مامي » مع ياسمين عبد العزيز و« أمير البحار » مع محمد هنيدي.

كما اشتهر بعدة جمل يحرص جمهوره على إستخدامها بإستمرار عبر مواقع التواصل الإجتماعي ، و منها « إعمل الصح » والتي قالها بفيلم « لا تراجع و لا إستسلام » ، و« حلاوتك يا كوتش » جملته الشهيرة في فيلم «الآنسة مامي» .

يذكر أيضا أن غسان مطر تولى ، العديد من المناصب الهامة ، منها رئيس إتحاد الفنانين العرب ، والأمين العام للفنانين الفلسطينيين.

«السلم الخفي» مع ميرفت أمين

«حالة تلبس» مع وائل نور

من «بفعل فاعل»